المبحث الثاني

الملة وإطلاقاتها في اللغة والاصطلاح

من المصطلحات الشائعة في دراسة الأديان الملة ـ فلزم أن نحقق معناها اللغوي والشرعي ـ وإطلاقاتها في القرآن والسنة حتى يتبين لنا مدى توافقها مع معنى الدين من الناحيتين اللغوية والشرعية.

أولاً: الملة في اللغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور أن الملة تطلق على الشريعة والدين وفي الحديث «**لا يتوارث أهل ملتين**»، وتطلق الملة على الدين حقًا كان أو باطلاً كملة الإسلام كدين حق، وملة النصرانية واليهودية كدينين باطلين[١]. وتطلق الملة على الشرك أيضًا.

وتطلق الملة على الطريقة، ثم نقلت إلى الشرائع من حيث إن الأنبياء يعلمونها ويسلكونها[٢]، وتطلق الملة على الطريقة المسلوكة والسنة، ويرى بعضهم أن ذلك من إملال الكتاب، لأن السنة تُمَلُّ، وتكتب ليعمل بها ويرى آخرون أن ذلك من قولهم طريق ممل ومليل مسلوك مُعَدَّة للسير، والملة تُوطأ للناس ليسيروا عليها[٣].

* * *

(١) لسان العرب (٦/ ٤٢٧١)، وانظر مختار الصحاح ص (٥٦٤).

(٢) الكليات لأبي البقاء (٢/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني من الشين إلى الياء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م مجمع اللغة العربية.

obeikandl.com

ثانيًا الملة في الاصطلاح الشرعي:

تطلق الملة في الشرع على ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصل بها إلى جوار الله[١]، ومن ثم فهي تطلق على الدين من هذا الوجه.. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :١٦١] .

ثالثًا: إطلاقات الملة في القرآن والسنة:

وردت كلمة الملة في القرآن الكريم بمعنى الدين حقًا كان أو باطلاً. فمن ورودها بمعنى الدين الحق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] . وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة :١٣٥] .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران :٩٥] .

إن الملة أطلقها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على الإسلام الخالص الصريح الذى لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه مستهتر بها. إن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ولكن الله يدلهم على حقيقة دين إبراهيم وأنه الميل عن الشرك. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفًا، ومرة بأنه ما كان من المشركين، فما بالهم هم المشركون[٢].

ويقول جل وعلا ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] .

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص (٤٩٢).

(٢) انظر في ظلال القرآن (١/ ١٠٩ - ١١٠) وانظر ص (٤٢٨).

والمعنى اتبعوا ملة إبراهيم، لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ، فإن قيل فما وجه قوله ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ [الحج :٧٨] وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟ قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم، وقيل: خاطب به جميع المسلمين وإبراهيم أب لهم على معني وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب(١).

وهذه الإطلاقات جميعها تشعر بأنه ليس ثمة فرق بين الدين الصحيح وبين الملة في إطلاق الشرع.

يقول أستاذنا الدكتور/ عوض الله حجازي: «**لقد ظهر لي بعد البحث الدقيق واتضح لنا بعد المراجعة الواسعة أنه ليس هناك فرق واضح بين الدين والملة شرعًا لأن الله تعالى قد أطلق الملة على الدين الحق في كثير من آيات القرآن الكريم**»(٢). وقد استعرضنا آيات القرآن الكريم التي تبين أن الملة ترد بمعنى الدين الحق.

وإذا كان هناك من فرق بين الدين الحق والملة، فذلك الفرق لغوي لا شرعي.

يذكر أبو هلال العسكري في كتابه الفروق: «**الفرق بين الدين والملة . أن الملة : اسم لجملة الشريعة، والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال فلان حسن الدين، ولا يقال حسن الملة، وإنما يقال هو من أهل الملة وتقول ديني دين الملائكة، ولا تقول ملتي ملة الملائكة لأن الملة اسم للشرائع مع الإقرار بالله، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله تعالى وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك، فاليهودية ملة، لأن فيها شرائع وليس الشرك ملة، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر في بعض المواضع لتقارب معنيهما**»(٣).

وهذا التوضيح من «**أبي هلال**» يضبط مصطلح الملة وإطلاقاتها حتى يكون

---

(١) مختصر تفسير البغوي (٢/ ٦١٩).
(٢) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص (٩، ١٠).
(٣) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص (٢١٤).

المرء على بينة من كلامه خاصة فيما يتعلق بمصطلحات الأديان.

ويضيف الشهرستاني بعدًا آخر في التفريق بين الدين والملة إذ يقول: «**إن الإنسان لما كان محتاجًا إلى اجتماع مع الآخرين من بنى جنه في إقامة معاشه والاستعداد لميعاده ، وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعارف حتي يحفظ بالتمانع ما هو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملة**»[١].

فقد نظر الشهرستاني إلى الاجتماع على هيئة أو مبدأ وأطلق عليه اسم الملة ولكنه يبين أن الملة وضعها لا يتصور إلا بوضع شارع «أي نبي» يكون مخصوصًا من الله بآيات تدل على صدقه[٢]، أي أن الملة التي يجتمع عليها لا بد وأن تكون على الحق.

إطلاق الملة في القرآن الكريم على الدين الباطل:

يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠][٣]. أورد السيوطي في لباب النقول عن الثعلبي عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأبوا إلا أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة :١٢٠] ، ونلاحظ هنا أن الملة الواردة في الآية يراد بها الدين الباطل بدليل قول الله عز وجل للنبي ﷺ في نفس الآية: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة :١٢٠] .

ومن ذلك أيضًا قول الله تعالى في سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص (٣٨).
(٢) نفسه ص (٣٨).
(٣) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي بهامش المصحف ص (٢٨).

مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف :٨٨-٨٩] ، فالملة هنا استعملت بمعنى الدين الباطل ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص :٧][(١)] والملة هنا يعني بها النصرانية كما ورد عن ابن عباس ومقاتل والكلبي أو المقصود بها ملة قريش ودينهم كما ورد عن مجاهد وقتادة[(٢)].

إطلاقات الملة في السنة:

نأتي هنا ببعض استخدامات الملة في السنة حتى نتبين المقصود بإطلاقاتها، ودلالاتها.

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين**»[(٣)].. فقد ذهب الجمهور إلى أن المراد بالملتين الكفر والإسلام، فيكون كحديث «**لا يرث المسلم الكافر**»[(٤)].

وهناك إطلاق آخر للملة في السنة بمعنى الدين الحق فقد وردت رواية لحديث «**كل مولود يولد على الفطرة**» أي على الملة بدلاً من الفطرة في قوله ﷺ «**ما من مولود إلا ويولد على الملة**» بدلاً من الفطرة، والدين في قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم :٣٠] هو عين الملة كما يقول ابن حجر[(٥)].

وإطلاقات الملة في الأحاديث التي أوردناها لم تخرج عما ورد في القرآن أي أن الملة تأتي أحيانًا بمعنى الدين الحق، وقد وردت في السنة بمعني

(١) انظر تفسير البغوي (٢/ ٧٩٧) والجلالين ص (١٣٧).
(٢) رواه أحمد والأربعة إلا الترمذي وأورده صاحب سبل السلام (٤/ ١٥١).
(٣) نفسه (١/ ١٥٢).
(٤) فتح الباري (٣/ ٢٩٣) بتصرف يسير.
(٥) نفسه.

التوحيد في قول النبي ﷺ في أذكار الصباح «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[١].

فملة إبراهيم الواردة في الحديث هي التوحيد، ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقادًا، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام هي:ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلاً وانقيادًا وإنابة وتأتي أحيانًا بمعني الدين الباطل،وقد أوردنا شواهد على ذلك[٢].

* * *

(١) الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وابن السني من حديث عبد الرحمن بن أبزي وسنده صحيح انظر هامش الطحاوية ص٥٤.
(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص (٥٤) مؤسسة الرسالة.

obeikandl.com